ملامح من تاريخ بلاد الأمازيغ

أ. محمد حماس

جامعة ابن طفيل. كلية الآداب. القنيطرة. المغرب

تقديم:

لم تكن خلال العصور البائدة حدود، ولا أقاليم قائمة الذات، كما هو الحال الآن. كل أرض كانت تأخذ اسم سكانها، سواء كانت البنية الاجتماعية فيها قبلية، أو عشائرية، أو عائلية. تغير ويغار عليها، تعيش الترحال والانتقال، ربما كان الجنس البشري آن ذاك مولعا باكتشاف نقط كوكب الأرض، فتزيد مساحة هذه البلاد أو تتقلص حسب توسع أهلها، الحروب مستمرة والاقتتال من أجل البقاء والتملك دائم فيتوسع أقوام على حساب آخرين، وتنقرض حضارات لتحل محلها أخرى .. سال مداد كثير ولايزال، عن تواجد الجنس البشري وتطوره ككائن يسعى بشكل دائم للمعرفة واكتشاف الآفاق البعيدة، لكن لا أحد يمكنه الجزم بامتلاك الحقيقة، حقيقة الصراع القائم منذ الأزل هو ذاته الصراع من أجل السلطة، قد تختلف مظاهره ويبقى عمقه واحدا لا يتغير ولا يتبدل.

سوف نكتفي، في هذه الورقة، بالمرور في عجالة على بعض من تاريخ نقطة من هذا الكوكب، المسماة بلاد الأمازيغ، ولو أن أسماء هذه البلاد تعددت وتكررت.

ترى ما الذي أعطى لهذه الأرض كل تلك الأهمية؟ لماذا ظلت محط جدل وتضارب في التأريخ لها؟ هل الأمر يتعلق بكل ذلك العدد الكبير من الحضارات التي تعاقبت عليها؟ أم الأمر يهم سكانها الأصليين؟ أم هما معا؟ لماذا وقع التهافت نحو امتلاك هذه البقعة المعروفة ببلاد الأمازيغ؟ هل الأمر يتعلق بخيراتها؟ لماذا مرت دول وشعوب بها دون أن تعرف الاستقرار حتى جاء العرب؟

إن المقصود ببلاد الأمازيغ، أو الأمازيغ، هي تلك الأراضي الممتدة من سيوه غرب صحراء مصر، شرقا، إلى جزر الكناري حيث عاش الغوانش الأمازيغ، غربا، ومن البحر الأبيض المتوسط، شمالا، إلى مالي وبوركينا، جنوبا.

سوف نركز على بعض من ملامح بعض الممالك الأمازيغية الإسلامية، التي حكمت هذه المنطقة المسماة بلاد الأمازيغ (الأمازيغ)، أو شمال إفريقيا، أو الغرب الإسلامي، والأمر يهم دولا عظمى هي: المرابطون والموحدون والمرينيون والوطاسيون ثم قبل كل هؤلاء مملكة أخرى لم يصلنا عنها إلا القليل رغم كونها عمرت حوالي ثلاثة قرون هي دولة بني صالح بتامسنا، ثم إمارة نكور وإمارات

أخرى أسسا بنو يفرن، هذا في أفق إثارة الاهتمام لمدى عناية هذه الدول بالمجالين، الديني والروحي.

معلوم أن إسم "لوبي" شاع لدا اليونان، و"إفري" من مبتكرات الفينيقيين، و"بربر" أطلقها عليهم الرومان الذين سموا كل من خرج عن طاعتهم "بربر" بنية التحقير والاستخفاف، ثم عبارات أخرى من قبيل "باربايسي" و"باربارجيا" وفي مصر مدينة تسمى"باربايا". وسميت الشعوب الجرمانية "باربار" بمعنى الهمج والمتوحشين. أما تسمية أمازيغ، فيبدو أنها قديمة،(كما ورد عند ابن سعيد الدرجيني، صاحب طبقات مشائخ المغرب)(1).

لقد اتخذت هذه البلاد أسماء عدة، هكذا عرفت أفريقيا الشمالية ببلاد الأمازيغ، وأطلق عليها الإغريق اسم ليبيا، وسماها الرومان أفريقية (تونس الحالية) وهو الإسم الذي اتخذته سائر القارة وأطلق عليها العرب اسم بلاد المغرب، مقابل بلادهم بالمشرق، أي بمفهوم جغرافي(2).

الأمازيغ قبل الفتح الإسلامي:

لا نعرف عن تاريخ الأمازيغ إلا القليل فتواجدهم بالشمال الأفريقي قد يتجاوز5 آلاف سنة ولو أن اسمهم ليس قديما بكل هذا القدر.

أما عن أصولهم، فهناك اختلاف كبير بين الدارسين، وهو اختلاف راجع لكون جل الباحثين أو النسابة، ينطلقون من فرضية أن أمة الأمازيغ جاءت من مكان ما، لهذا وجب التساؤل، لماذا الإصرار على كون الأمازيغ جاؤوا من مكان ما؟ من الجرمان أو اليمن؟ ألا يمكن التسليم بأن هذا الشعب تواجد بهذه البلاد واستقر بها وأخذت اسمه؟

لقد ذهب عدد من المؤرخين إلى الربط بين القوم الشقر من الأمازيغ والأجناس الأروبية القديمة، مثل الأيبيريين (Iberians) والكلت (Celts)(3).

الأمازيغ هم أول سكان المغرب القديم، سكنوا جباله وتلاله وأريافه وضواحيه وأمصاره(4)، سكنوا بيوتا بناؤها من طين وحجارة وشجر، فكانوا يدعمون الخيام بأوراق الأشجار والشعر والوبر، أما أهل العز منهم فيظعنون لانتجاع المراعي لا يجاوزون الريف إلى الصحراء، يكسبون من الماشية البقر والخيل والشاء(5).

ويرى القلقشندي أنهم عرب، يرجعون في نسبهم إلى قبيلتي لخم وجذام العربيتين من فلسطين والشام، كانوا هناك إلى أن تم إخراجهم من طرف بعض ملوك فارس إلى أن استقروا بمصر ثم زحفوا نحو المغرب إلى أن جاء أفريقش(6) .. إلى آخر الرواية التي تزعم نسبهم العربي.

شجب عبد الرحمن ابن خلدون كل هذه الادعاءات، باعتبار أن الكنعانيين ليسوا عربا، وليسوا من أبناء سام، ثم إن العرق الأمازيغي سابق في الوجود، فهم ليسوا من ولد إبراهيم لأنهم عاشوا في زمن داوود الذي قتل جالوت، ومعلوم أن داوود كان بينه وبين إسحاق بن إبراهيم أخو نعشان، عشرة آباء فقط، فلا يمكن أن يتناسلوا بهذه الكثرة، أما القول أنهم من بلاد الشام وكونهم من جالوت أو العماليق، فذاك ضرب من الخرافة(7)، لأنه لا يمكن لشعب بكل ما عرف عنه من حضارة وحكم وقوة، أن يكون تابعا أو منحدرا من منبت غير الأرض التي احتضنت كل تاريخه.

لقد ظلت بلاد الأمازيغ هدفا لشعوب خلت كان أولها الفينيقيون، ثم القرطاجيون، ومن بعدهم الرومان، الذين استغلوا خيرات البلاد واستعبدوا أهلها. لقد بدأت المعاناة الحقيقية للبربر بعد سقوط قرطاج ووقوع الملك يوغورطة في الأسر لدا الرومان، هؤلاء قاموا بإحراق المدن في مصر وأحرقوا خزانة الإسكندر التي حوت كنزا عظيما من تاريخ الأمازيغ وحضارتهم بما في ذلك كتابتهم، لهذا تراجع الأمازيغ نحو الجبال، أما الوندال فلم يكونوا أقل تسلطا ممن سبقهم.

جاء الفينيقيون من ليبيا الحالية، فأسسوا سنة 1100ق.م على الضفة الأطلسية مدينة لوكوس(8)، التي أضحت من أهم المراكز التجارية والحضرية، وقد تعاقبت عليها العديد من الحضارات القديمة، منذ ما قبل الميلاد إلى غاية المرحلة

الإسلامية فكانت لها أدوار طلائعية في تاريخ التراث الإنساني عموما والمتوسطي تحديدا. هكذا دخل الأمازيغ في علاقات تجارية مع الوندال، ثم من بعهدهم القرطاجيين الذين أسسوا عدة مراكز تجارية على الساحل المتوسطي ليستمر نشاطهم التجاري قرونا عدة مع الأمازيغ فجلبوا الذهب وزراعة الكروم والعديد من التقنيات الزراعية إضافة إلى الطقوس الدينية التي عمد الأمازيغ إلى ممارسة البعض منها.

تولى مسينيسا، أول ملوك الأمازيغ، الحكم في القرن 3 ق. م(9)، وامتدت مملكته من مدينة قسنطينة إلى الحدود التونسية الحالية، فأسس مملكة نوميديا بدعم من الرومان، مقابل تعاونه معهم ضد القرطاجيين وكانت عاصمتها "سيرتا"(قسنطينة حاليا)(10) ، امتدت من غرب تونس حاليا وضمت المغرب الأوسط وجزءا من المغرب الأقصى، سكنها المازيليون جهة الغرب، حلفاء الرومان، ثم المسايسوليون في الجهة الشرقية، حلفاء القرطاجيين. المازيليون يحكمهم ماسينيسا، أما المسايسوليون فيحكمهم سيفاكس ...

ويعتبر ماسينيسا أول وأعظم ملك بربري عرفه التاريخ بفضل ما حققه من ازدهار وانتصارات كان أولها توحيد مملكة نوميديا بعد انتصاره على سيفاكس، ثم الهزيمة التي ألحقها بحنبعل كبير قادة القرطاجيين سنة 202 ق.م. ثم خلفه فيما بعد ملك قوي هو حفيده يوغورطة الذي كان عدوا للرومان، فاعتقلوه وألقوا به

في السجن ليموت مشنوقا داخل زنزانته، وعند سقوط قرطاج العام 146 ق.م بسط الرومان نفوذهم على كافة تراب المغرب(11).

خلال الحكم الروماني نشطت الحياة التجارية والزراعية والمنشآت، حيث تم تشييد الطرقات والمدن(وليلي).

بعد سقوط حكم يوغورطة سلم الرومان جزءا من نوميديا للبربر باعتبار أنهم أزاحوا عدوا لهم من الحكم، وبالتالي لابد من التعايش مع الأمازيغ وضمان الاستقرار بمنطقة نفوذهم.

ومن الملوك الأمازيغ المحسوبين على الصف الروماني، نذكر كذلك، جوبا الثاني الذي أسس موريتانيا ما بين سنتي 25 إلى 23 ق.م وعرف عنه أنه كان عالما ومولعا بجمع التحف والآثار.

ثم جاء من بعده الإمبراطور أغسطين زوج كيلوباترا سيلين ابنة كيلوباترا الكبيرة، جعل من عاصمته شيرشل مدينة للفنانين اليونان.

قام الإمبراطور كلود الأول، حوالي سنة 42 ق.م، بضم موريتانيا إلى بلاد الرومان، وقد كانت موريتانيا منقسمة إلى إقليمين :

- موريتانيا الطنجية (المغرب حاليا). على رأسها بطوليمي ابن جوبا
- موريتانيا القيصرية (الجزائر حاليا)

أما في الغرب فتقوم مملكة نوميديا (قسنطينة). وإفريقية (تونس حاليا)

لقد كانت بلاد الأمازيغ وعرة بسبب الجبال، لهذا لم يكن بوسع الرومان مراقبة كافة تراب المستعمرات عدا فولوبيليس(وليلي) فتراجعوا نحو جهة طنجة العام 285م والتي كانت تحت نفوذ الملك ديوكليتين بإسبانيا.

هزم الوندال الرومان سنة 435م واستولوا على كل المنطقة المتوسطية (شمال المغرب والجزائر حاليا)، فسيطروا على قرطاج واتخذوها عاصمة لملكهم، حكموا غرب البحر الأبيض المتوسط والجزر المتاخمة لإسبانيا ومع ذلك لم يستطيعوا إخضاع الرومان وبربر إفريقيا إلى أن كانت سنة 533م حيث قام الإمبراطور البيزنطي جوستين الأول بإرسال أحد قواد جيشه، الجنرال بيليساير لردع الأمازيغ، فأخضعهم تحت النفوذ البيزنطي سنة 534م، ومع ذلك استمرت العديد من بؤر التوتر والمقاومة الأمازيغية بالجبال رغم هزيمة الوندال(12).

العرب المسلمون:

كان عمرو بن العاص أول أمير للمسلمين وطئت خيله أرض المغرب(13)، على عهد الخليفة عمر بن الخطاب دون أن يصل إلى أفريقية، فتح برقة وطرابلس، ثم جاء الخيلفة عثمان بن عفان فعزل عمرو بن العاص عن مصر وولى أخاه في الرضاعة عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري وأمره بفتح أفريقية سنة

26هـ.(14) ، فهزم المسلمون جيوش الروم وقتلوا منهم خلقا كثيرا وقتل بن الزبير جرجير واستمر زحف المسلمين فوقع بينهم وبين الروم و الأمازيغ قتل وسبي، وقد أسروا عددا من ملوك الأمازيغ، دام مقامهم آنئذ بأفريقية عاما وثلاثة أشهر ليقوم هرقل بإرسال من سيهزم الأمازيغ عقابا لهم على توافقهم مع المسلمين(15)، بعد هذا تولى معاوية بن حديج أمر المغرب فهزم الرومان، وتولى بعده عقبة بن نافع الفهري وأبو المهاجر دينار الذي فتح المغرب الأوسط(16).

بلغ العرب المسلمون شواطئ المحيط الأطلسي سنة681م فلاقوا مقاومة عنيفة من طرف الأمازيغ حيث اتحدت القبائل الأمازيغية مشكلة فيدرالية قبائل مصمودة بالأطلس الكبير الغربي والأطلس الصغير والريف والسهول الأطلسية ثم قبائل صنهاجة بالأطلس المتوسط وزناتة بشرق المغرب، ولم تكن المقاومة الأمازيغية للعرب وحدهم، بل ضد كل من سبقهم من الأقوام: فنيقيون ورومان وقرطاجيون وبيزنطيون ووندال، هذه المقاومة تزعمها بداية الأمر الملك كسيلة، فانتهت بمقتل عقبة بن نافع الفهري وأبي المهاجر، ثم زهير بن قيس فيما بعد على يد الروم، ومعهم قوم كثير. ثم جاءت الملكة ديهيا، زعيمة جراوة عام 695م، لتتولى أمر الأمازيغ بحكمة كبيرة، وشجاعة عالية، تنم عن مراس وإستراتيجية حربية قل نظيرها، ولم تنهزم إلا خلال الحملة الثانية على أفريقية، على يد القائد حسان بن النعمان(17)..

اعتنق الأمازيغ الإسلام على نطاق واسع خلال القرن 8م، وأضحوا جيشا قويا ينشر العقيدة الجديدة، فتقوت شوكة المسلمين بالتحام الأمازيغ في صفوف الجيوش العربية لما عرف عن الأمازيغ من شجاعة وبسالة ورباطة جأش وثبات، فوجدوا في الدين الجديد ما يؤلف بينهم ويمحي العديد من المعتقدات الوثنية، ولو أن العديد من تلك المعتقدات استمرت إلى الزمن الراهن، وأيضا ما يجعلهم يتخلصون من تكالب أمم أخرى على بلادهم، فكان لموسى بن نصير كبير الأثر في ذلك(18)، فزحفوا نحو الأندلس وعلى رأسهم القائد الأمازيغي المسلم طارق بن زياد سنة 711م(19)، فحققوا من الانتصارات هناك ما جعل الإسلام يستمر لقرون لولا عبث ملوك الطوائف وانغماسهم في اللهو وتشرذمهم فبنوا مجدا لا تزال آثاره بادية نبكيها فردوسا مفقودا.

من الأمازيغ من تصنع النسب العربي واستند إلى النسب النبوي، مثل الحفصيين والزيانيين . العبدواديين والمرينيين... ثم تصاهروا مع العرب، كل هذا حتى يتساووا معهم، ولا يزال الجدل قائما إلى الآن حول من كتب الخطبة الشهير المنسوبة إلى طارق بن زياد؟ هل هو كاتبها أو كتبها قلم صاحبه عربي!!!! أولم يتعزز الإسلام بانضمام العجم إليه؟ فما مشروعية هذا السؤال؟ أليست الأحقاد ضد انتصارات طارق بن زياد هي المحرك لمثل هذه الظنون؟

أضحت بلاد الأمازيغ بعد الفتح الإسلامي تضم ثلاثة ممالك، هناك مملكة إفريقية، وهي المغرب الأدنى، قاعدتها في صدر الإسلام مدينة القيروان، ثم المغرب الأوسط، قاعدته تلمسان وجزائر بني مزغنة، ثم تأتي مملكة المغرب الأقصى لتشمل خمس عمالات: فاس ومراكش والسوس ودرعة وتافيلالت، تقوم دار الملك فيه بين فاس ومراكش، غالبية ساكنته من المصامدة وبعض من صنهاجة(20).

هكذا، ومنذ بداية الفتح الإسلامي لإفريقيا الشمالية، بلاد الأمازيغ، تعاقب على ولاية هذه الأرض كل من عبيد الله بن سعد بن أبي سرح الذي فتح أفريقية(21)، ومعاوية بن حديج، وعقبة بن نافع الفهري، باني مدينة القيروان(22)، وأبو المهاجر دينار، فاتح المغرب الأوسط(23)، ثم الولاية الثانية لعقبة بن نافع الفهري، فاتح المغرب الأقصى، ومقتله على يد الأمازيغ(24)، وزهير بن قيس البلوي قاتل كسيلة، وحسان بن النعمان(25)، وموسى بن نصير(26)، ومحمد بن يزيد، وإسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر، ويزيد بن أبي مسلم(30)، وبشر بن أبي صفوان، وعبيدة بن عبد الرحمن(31)، وعبد الله بن الحبحاب(32)، هذا الأخير كان من القيسية فاضطهد اليمنية، وعامل الأمازيغ كونهم فيء من المسلمين وأراد أن يخمسهم، وقد ولى ابنه إسماعيل على السوس الأقصى، فاستبد ب الأمازيغ، وكثر عبثه بنسائهم. كان ابن الحبحاب ينتزع المال والنساء من الأمازيغ ويرسلها للخليفة هشام بن عبد الملك فعهد لحبيب بن أبي

عبيدة بشن حملة شملت سائر تراب الأمازيغ لجمع المزيد من المال والسبايا، ناهيك عن إرسال الأمازيغ للقيام بالحملات ضد الجيوش الأجنبية(33). وكلثوم بن عياض الذي قتل هو الآخر(34)، وحنضلة بن صفوان(35). ومن بعدهم آخرون إلى حين تأسيس دولة الأدارسة ... هكذا تحول مسار الفتح الإسلامي لبلاد الأمازيغ إلى غزو عربي للنهب واستباحة الأرض والعرض تحت غطاء نشر العقيدة الإسلامية وهو المر الذي دعا الأمازيغ للدفاع عن أرضهم وعرضهم وهويتهم وثقافتهم وقد اعتنقوا الإسلام وعملوا على نشره ...

الأثر الخارجي على الأمازيغ

لقد شكل الخوارج خطرا دائما بالمشرق والمغرب، فقد ساهموا في إسقاط الدولة الأموية واقلقوا خلفاء الدولة العباسية بالمغرب خلال العصر الأول، حيث استمالوا الأمازيغ إلى مبادئهم، من إباضية وصفرية، فخلعوا أبا جعفر المنصور واستولوا على القيروان، ورغم ضعف شوكة الخوارج بالمشرق استمر نفوذهم بالمغرب بزعامة أبي يزيد مخلد بن كيداد الذي هدد الوجود الفاطمي، وقد انتشرت جيوشه في سائر بلاد الفاطميين العام 333هـ إلى أن هزمهم الخليفة المنصور ومات أبو يزيد سنة 336هـ متأثرا بجراحه بعد وقوعه في الأسر(36). لقد أثروا في المشهد السياسي بالشمال الإفريقي إلى نهاية القرن الرابع الهجري(37)، فعرفت بلاد المغرب في عهدهم أيما ازدهار على مختلف المستويات، الاقتصادية

والاجتماعية، بل كان التواجد الخارجي ثورة حقيقية ضد السلطتين، الأموية والعباسية، وبالتالي رفعوا راية الاستقلال عن المشرق، فاتسعت رقعة المذهب الخارجي الأمازيغي لتشمل قسطيلية، وقفصة، ونفطة، ووالحامة، وبشار، وجبل نفوسة، وجربة، وأقصى جنوب المغرب الأوسط، حسب ابن حوقل، وجميعهم من الخوارج الإباضية، والوهبية، وقد لعب الإباضيون دورا بارزا في نشر الإسلام ببلاد السودان قبل بني زيري(38)، ورغم أنه لم يكتب لثورتهم النجاح والاستمرار إلا أن الأثر بقي ولا يزال باديا على شعوب منطقة الغرب الإسلامي باعتبار أن الفكر لا يمكن دحضه أو اختزاله، فهو يستمر وتتوارثه الشعوب جيلا بعد جيل، لا يهم عدد من اعتقد به أو حمله، المهم أنه يستمر على مستوى السلوك والممارسة اليومية ليصبح جزءا من ثقافة من اعتنقه كما هو الحال بالنسبة للفكر الخارجي الذي هو مستمر في مجتمعات الغرب الإسلامي عن وعي بذلك أو غير وعي، فالأمر يدخل في سياق حضاري عام، والحضارة هي كل هذا، شيء من هذا وذاك، ثم إنه لا يمكن استغراب ازدهار المذهب الخارجي بهذا الشكل مادامت نفوس الأمازيغ ظلت مؤهلة بطبيعتها لاعتناقه، وقد توج هذا التواجد بقيام دولتي بني مدرار بسجلماسة والرستمية في تيهرت.

لقد استمرت ثورات الأمازيغ بكل عنف وقوة، كانت تحكمها غريزة البقاء وطبع التمرد وروح الاستقلال. انفردت العديد من القبائل الأمازيغية بزعامة هذه

الثورات واستطاعت الوصول إلى سدة الحكم، ومنها مطغرة بزعامة القائد ميسرة، ثم قبيلة بني يفرن التي أقامت دولا في المغربين، الأوسط والأقصى، والأندلس زمن الطوائف، هي: إمارة أبي قرة اليفرني، وهي إمارة بدوية قامت في شكل حلف قبلي، ثم إمارة يعلى بن محمد بن صالح اليفرني بافكان، وإمارة بني يعلى بن محمد اليفرني بسلا في المغرب الأقصى، وإمارة أبي نور ابن أبي قرة اليفرني برندة بإقليم تاكرنَّا بالأندلس، ثم التكتل القبلي الذي ترأسه أبو يزيد والمتكون من بعض الأحلاف القبلية الزناتية(39).

ثورة ميسرة:

ظل الأثر الخارجي قائما بين صفوف الأمازيغ مما أدى إلى اندلاع ثورة جديدة سنة 122هـ هي ثورة ميسرة(40)، هذه الثورة كانت لحظة تحول في تاريخ منطقة الغرب الإسلامي بالنظر إلى دوافعها، لقد كان سببها الاعتداءات والتجاوزات التي أقدم عليها القواد العرب، من استباحة لمال وعرض الأمازيغ وخروجهم عن مسار نشر العقيدة مما جعل مشايخ القبائل الأمازيغية تشكل وفدا يرأسه ميسرة، شيخ قبيلة مضغرة، يتوجه إلى الخليفة هشام بن عبد الملك بن مروان فلم يجدوا الآذان الصاغية لمعاناتهم لأن الخليفة ذاته كان وراء تلك الاعتداءات مادام هو من يعين الولاة ويأمر بشن الغارة العسكرية على بلاد الأمازيغ ...، فأعلن ميسرة نفسه خليفة فالتفت القبائل الأمازيغية حوله، ومنهم مكناسة

وبرغواطة بزعامة صالح بن طريف، ثم انضمت إليه زناتة المغرب الأوسط(41)، فانتشرت الثورة في سائر بلاد المغرب انتشار النار في الهشيم.

ينتمي ميسرة المطغري للمذهب الخارجي، على الطريقة الصفرية. وهو المذهب الذي انتهجته مطغرة، ومكناسة، وزناتة، وبرغواطة إلى السودان(42). لقد تعرض ميسرة للتشهير، فتم وصفه بالحقير، والسقاء، والفقير(43)، وغيرها من النعوت التي تحط من شأنه. إلا أن المؤكد هو أن ميسرة كان زعيم قبيلته. فهو "رئيس مطغرة"(44)، و"مقدم الصفرية"(45).

سلالات أمازيغية حاكمة

إمارة نكور

إنه لمن الأهمية بمكان التذكير بمملكة عظيمة نشأت بالريف المغربي هي إمارة نكور التي ظهرت مع نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني الهجريين، 125هـ/743م، وقد استمرت في الوجود حوالي ثلاثة قرون، إذ تعتبر أول دولة سابقة في الميلاد قبل أية دولة أخرى بالمغرب الأقصى(47). وقد كانت على المذهب السني من الخوارج.

عندما دخل صالح بن منصور بلاد المغرب أول الفتح الإسلامي، كان قد أسلم على يده عدد من قبائل الأمازيغ، منهم صنهاجة وغمارة، وقد نزل ببلاد

تمسمان وبها مات بعد أن حكم أهلها قبل أن يرتدوا عليه ليعودوا إليه ثانية... وتولى من أبنائه المعتصم وإدريس وسعيد.

سعيد هو الذي بنى مدينة نكور(48)، فحكم قومه 37 سنة وخلفه إبنه صالح. ومن أشهر أبنائه، عبد الرحمن الذي كان فقيها عالما ورعا أدى فريضة الحج أربع مرات وعبر نحو الأندلس للجهاد فقضى على الثائر ابن حفصون ومن معه وبسط يده على مورسية وشارك في غزوة أبي العباس القائد فاستشهد بها(49).

ثم اقتطع الوليد بن عبد الملك الأموي إمارة نكور لصالح بن منصور الحميري، من عرب اليمن سنة 91هـ (50)، ومن أهم مدنها مليلة وتمسمان ولمزمة وضمت أيضا حوض كرط.

كانت آخر أيام سعيد بن صالح، ملك نكور، حين شن عبيد الله الشيعي حملة على نكور بقيادة مصالة قائد تيهرت... فكانت هزيمته، ومنها انتقل إلى مالقة حيث استقر هناك مع ثلة ممن فروا بصحبته فتربصوا بعدوهم بعد ستة أشهر ليعاودوا الكرة فيستعيدوا الإمارة ويلتف الأمازيغ من حول صالح... وفي سنة 308هـ عاد مصالة بن حبوس الفاطمي في إطار الصراع الفاطمي الأموي من جديد على رأس جيوشه ليهزم صالحا ويحتل نكور، أما صالح فتحصن بجبل أبي الحسين(51) ثم انجلى عنها إلى أن صارت سنة 318هـ حيث زحف ابن أبي

العافية نحو نكور، وقتل أميرها المؤيد بن عبد البديع بن إدريس بن صالح بن منصور وخرب أسوارها وقتل من فيها فغنم واستباح الأعراض(52).

أما الزعيم المرابطي يوسف بن تاشفين فقد غزا الريف برمته سنة 473هـ ففتح أكْرسيف ومليلة وخرب نكور(53)...

دولة برغواطة بتامسنا

تسمى تامسنا أو السوس الأدنى، يحدها جهة الشمال نهر أبي رقراق وجنوبا نهر أم الربيع وغربا المحيط الأطلسي وشرقا جبال الأطلس، يصف الحسن الوزان تامسنا كونه إقليما تابعا للملكة فاس وتسكنه قبائل الأمازيغ، كان فيه نحو 40 مدينة و300 قصر ثاروا ضد ملك فاس عام 323هـ فاحتفظوا بتامسنا بعد التفاوض مع ملك فاس(54)، أسسها طريف بن مالك أحد قواد موسى بن نصير، شارك في فتح المغرب الأقصى والأندلس. وطريف هذا كان من أتباع ميسرة على مذهب الصفرية، على خلاف جمهور بني يفرن ومغراوة وزناتة عامة الذين كانوا من أهل الجماعة والسنة(55)، ولما انقضى أمر ميسرة بقي قائما بأمر تامسنا، ويقال أنه ادعى النبوءة وشرع لقومه الشرائع، ثم خلفه إبنه صالح الذي شهد حروب ميسرة بجانبه، وقد كان ذا علم، ادعى النبوءة هو أيضا فتشبه بالنبي محمد عليه السلام وادعى أنه المهدي وما إلى ذلك، ثم خلفه إبنه إلياس الذي لم يسر على نهج أبيه فحكم قومه حوالي خمسين سنة، ثم خلفه بعد وفاته ابنه يونس

الذي أظهر كفره وأحرق مدن عدة فقتله مخالفوه بعد سبعة وأربعين سنة من الحكم، بعد أن أدى مناسك الحج. ثم خلفه أبو غفير محمد الذي استولى على ملك برغواطة وفتك بالأمازيغ، وقد هلك أواخر ق3هـ فورثه ابنه أبو الأنصار عبد الله الذي كان مهابا وفيا للعهد والجار، توفي سنة 441هـ(56).

قامت إمارة بني صالح بتامسنا، وهي بلاد المصامدة، كما وصفها بذلك ابن عذاري، ومن أهم قبائلها بورغواطة وزناتة وصنهاجة وهوارة ومطماطة، كان لها موقع حساس بين فاس عاصمة الأدارسة شمالا ومراكش عاصمة المرابطين جنوبا والرباط مدينة الموحدين هي أيضا في الجزء الشمالي من تامسنا(57). توارث الحكم ملوك كثر من ذرية صالح إلى أن هاجمهم الصنهاجيون وقتلوا ملكهم سنة 368هـ/978م، وفي عهد المرابطين قتل آخر ملوكهم، أبو حفص عبد الله حوالي سنة 455هـ/1063م(58)، كان لهذه الدولة دور تاريخي وسياسي واقتصادي كبير باعتبار موقعها الجغرافي، فجرى هذا الأثر على تاريخ المغرب الأقصى، لكن وللأسف الشديد لم تحظ بالاهتمام الذي يليق بها عدا ما تعرض له بعض الجغرافيون أمثال ابن حوقل والبكري رغم كونهما عاصرا فترة من عهد هذه الدولة إذ لم يتجاوز ما كتباه عنها بضع صفحات(59)، أما الإسلام فقد عرف طريقه إلى هذه القبائل مبكرا، في البداية مع عقبة بن نافع الفهري سنة 62هـ/681هـ، والذي لم يعمر هناك طويلا ليرتد نحو القيروان، فقتل على يد

كسيلة قرب وادي الأبيوض، ومعلوم أن عقبة أخذ كسيلة وامتهنه وأذله وهو الأمير في قومه فكان رد فعل كسيلة أن واجهه في معركة وقتله ومن معه(60) ... ثم جاء بعده موسى بن نصير، في عهد الوليد بن عبد الملك الذي أخضعهم، فدانت له قبائل السوس الأدنى (تامسنا حسب تقسيم ابن خرداذبة في المسالك والممالك)ونشر الإسلام بينهم وقد ولى عليهم كما على طنجة، القائد طارق ين زياد(61).

هاجم موسى بن نصير سكان تامسنا بواسطة جيش قوي أثار في نفوسهم الهلع ففضلوا الانسحاب تاركين مدينتهم وعبروا نهر أبي رقراق في اتجاه فاس لكن ملكها استغل الموقف وتصدى لهم وقضى عليهم، أما الجيوش المرابطية بقيادة يوسف بن تاشفين فقد تفردت بتامسنا طيلة ثمانية أشهر حيث حولتها إلى دمار وحمام دم لم ينج منه حتى الأطفال(62)، ثم زحف يعلى بن أبي الفتوح الأزداجي سنة 406هـ على مملكة تامسنا في آخر أيامها، وهو أمير أزداجة المتغلبين بوهران، فخربها وقضى على بني صالح وأقام الأزداجيون هناك إلى سنة 460هـ(63).

رغم كل ما تقدم، يبدو تاريخ هذه الإمارة قويا من حيث الوقائع والحراك الذي أججه بمنطقة المغرب الأقصى. إذ لا يمكن أن تستمر دولة في الوجود كل هذا الزمن دون أن تكون هناك ثوابت حضارية وثقافية تشدها لأرضها ولمحيطها، ثم ما كانت لتستميل الدول لغزوها لو لم تكن محل إغراء،

فتوالت الضربات عليها لاستأصالها، فتم ذلك بذريعة الشرك والكفر وذاك أمر والله في حاجة لتمحيص، ألم يتم التعامل مع ادعاء النبوءة عند طريف بكثير من المبالغة؟ لماذا لم تتم معالجة أمر كهذا بسبل أخرى؟ لماذا التقتيل والإبادة؟ كل هذه أسئلة تحتاج لبحث يتوخى الموضوعية والنبش في تاريخ هذه الإمارة.

المرابطون:

تعتبر صنهاجة إحدى كبريات قبائل البرانس الأمازيغية، بل أعظم قبائلها بالمغرب، تنتشر بطونها في كل جبل وبسيط حتى زعم كثير من الناس أنهم ثلث الأمازيغ رغم أن هناك من النسابة من يزعم أن صنهاجة وكتامة من حمير خلفهم الملك أفريقش بالمغرب فاستحالت لغتهم إلى الأمازيغية، والحقيقة خلاف ذلك، ومنهم قبائل كثيرة تناهز السبعين(64). ينحدر المرابطون الملثمون من قبائل صنهاجة من لمتونة من الطبقة الثانية، (الطبقة الأولى منها آل زيري بن مناد ولاة العبيديين بأفريقية ودول أخرى كثيرة(65))، كانوا يرتحلون بالصحراء ما بين السينغال والنيجر جنوب المغرب الأقصى، اعتنقوا الإسلام نهاية القرن 3هـ، ورغم ذلك لم يكونوا على دراية بواجباتهم تجاه العقيدة الجديدة، تزعمهم أبو عبد الله بن تيفاوت(66)، وبعد وفاته تولى أمرهم يحي ابن إبراهيم الكدالي الذي اعتزم أداء فريضة الحج فترك على رأس صنهاجة ولده إبراهيم، وفي طريق عودته من مكة سنة 1049م استعان بأحد فقهاء المالكية بمدينة القيروان المدعو أبو عمران

الفاسي الذي كتب لأحد تلامذته أبو محمد واجاج اللمطي بالسوس الأقصى(67) بنفيس قرب أغمات لينتذب بدوره أحد تلامذته النبهاء ليرافق يحيى بن إبراهيم يعلم صنهاجة أمور دينهم، فأوصى له بالإمام عبد الله بن ياسين الجزولي(68)، هكذا، وبعد استقراره بين لمتونة شرع في وعظهم دون كبير فائدة فتراجع نحو السينغال حيث قام بتأسيس رباط جمع فيه عددا من أتباعه سموا المرابطين ليعلن بعدها الجهاد من أجل تطبيق السنة النبوية واحترام تعاليم الإسلام الحقة وفق المذهب المالكي(69)، هذه الرحلة تؤكد مدى تمسك الأمازيغ بالعقيدة الإسلامية منذ زمن مبكر حيث كان لابد من السند الديني الصحيح لجمع شمل القبائل بالصحراء وتوحيدها من أجل بناء دولة قوية سوف تمتلك الغرب الإسلامي برمته، ثم من جهة أخرى تشير هذه الرحلة إلى أن مقاومة الأمازيغ للعرب كانت بسبب تسلط القواد والولاة العرب الذين كانوا يأخذون كل شيء بالقوة بدل الدعوة للعقيدة الجديدة بالتي هي أحسن، الشيء الذي رفضه الأمازيغ، وأسفر عن إراقة دم كثير بين الفريقين.

اجتمع للشيخ عبد الله بن ياسين ما يكفي من الرجال ليعلن الجهاد على من خالفه من القبائل بدءا بكدالة ثم لمتونة سنة 434هـ(70)، فقامت دعوة عبد الله بن ياسين على أسس دينية خالصة حيث اعتمد تحفيز المرابطين من أتباعه على الجهاد بغية مرضاة الله والظفر بالجنة التي أعدت للمتقين وأن الله سينصرهم ما

داموا ينصرون الحق وينشرون الدعوة المحمدية ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

انطلقت عملية الجهاد وتوحيد القبائل الأمازيغية وتعاقب على زعامة جيوش المرابطين، على عهد عبد الله بن ياسين، كل من يحي بن عمر اللمتوني الذي استقام له الأمر فملك جميع بلاد الصحراء والسودان وقد كان من أهل الزهد والدين والصلاح(71)، ثم أخوه أبو بكر بن عمر اللمتوني سنة 448هـ الذي أخضع بلاد السوس والمصامدة، وقد اتصف هو الآخر بالورع والعمل بالتعاليم الإسلامية(72)، ثم من بعده القائد يوسف بن تاشفين الذي سطع نجمه إبان الحروب التي خاضها على رأس جيوش المرابطين في عهد أبي بكر بن عمر، فغزا جزولة وتارودانت إذ قتل المرابطون بها خلقا كثيرا عرفوا بالرافضة نسبة لعي بن عبد الله البجلى الرافضي، صاحب مذهب الرافضة(73).

ما زال عبد بن ياسين متقدما في نشر دعوة المرابطين، فغزا جبل درن وبلاد رودة ومدينة شفشاون ونفيس، فأخضع قبائل وبايعته أخرى ودخل مدينة أغمات سنة 449هـ ففر منها حاكمها لقوط، ثم قتل ملوك بني يفرن وملك أغمات معهم وبعدها أخضع برغواطة بتامسنا(74).

شرع المرابطون في السيطرة على مملكة غانا والمغرب بزعامة يوسف بن تاشفين، الذي أتم بناء مدينة مراكش، التي بدأ بناءها أبو بكر بن عمر سنة

451هـ/1060م ،لتكون عاصمة لمملكته، وموحد المغرب الأقصى، والمغرب الأوسط سنة 472هـ.

هرع يوسف بن تاشفين لنجدة المسلمين بالأندلس وتوسيع دائرة ملكه، فكانت معركة الزلاقة سنة 482هـ الموافق ليوم 2 نونبر 1086م، حيث هزم جيوش الإسبان وقتل ألفونس السادس الذي كان قد انتزع طليطلة من المسلمين قبل عام فوحد الأندلس تحت راية دولة المرابطين بعد حروب ضد ملوك الطوائف هزمهم خلالها وقتل منهم عددا غير يسير بسبب طغيانهم ومولاتهم لعدوهم في الدين وسار على نهجه من بعده إبنه علي (500هـ إلى 537هـ) وانتقلت حضارة الأندلس إلى بلاد المغرب(75).

تلقب يوسف بن تاشفين بأمير المسلمين ولم يأخذ لقب الخليفة أبو العباس المستظهر بالله العباسي رغم ما كان له من القوة وما بلغ من العزة لأنه اعتبر لقب أمير المؤمنين خاصا بالخليفة، والخليفة من قريش، فاستأذن الخليفة ليعقد ويعهد له على ما بين يديه من الأقطار والأقاليم(76)، سلوك من هذا القبيل ينم عن دهاء وولاء، فهو بذلك يتقي شر دار الخلافة ويضمن الاستقلالية. لقد حكم يوسف بن تاشفين نصف قرن من الزمن وحد خلالها شمال أفريقيا والأندلس، وأخضع القبائل الأمازيغية الأخرى، إلا ما سلف من تقتيل للقبائل الأمازيغية المناوئة، خاصة ما ألحقه بتامسنا من دمار.

بدأت قوة الدولة المرابطية تتراجع مع ظهور المهدي بن تومرت في عقر دار السلطة المرابطية بعد 14 سنة من حكم علي بن يوسف(77) ليظهر الموحدون كقوة جديدة بالغرب الإسلامي على أنقاض الدولة المرابطية.

الموحدون:

انتزعوا الملك من المرابطين سنة 541هـ/ 1146م، واستمر حكمهم حتى العام 597هـ/1202م، وبالأندلس إلى غاية 1169م .. قامت دولتهم على التوحيد.

استقر الموحدون بجبال الأطلس، بجبل درن ويعود نسبهم لمصمودة، كانوا أكثر عددا وأشد قوة وطاعة للدين مخالفين لإخوانهم برغواطة، ومن مشاهيرهم يحي بن يحي راوي الموطأ عن مالك، وهو الذي شهد فتح الأندلس مع طارق بن زياد مع ثلة من مشاهير المصامدة الذين استقروا هناك، وكان لأعقابهم بها ذكر في الدولة الأموية(78)، الشيء الذي يؤكد تعلق هذه القبائل الأمازيغية كغيرها من صنهاجة بالعقيدة الإسلامية منذ ظهورها، ثم إن المهدي بن تومرت نفسه أبدى شغفا كبيرا منذ صغره بحفظ القرآن الكريم وتحصيل علوم الدين فارتحل إلى المشرق ليتتلمذ على يد كبار الفقهاء ثم يعود إلى المغرب قصد نشر الدعوة الإسلامية من موقع العالم العارف بأمور الشريعة ومناهجها واختلاف مذاهبها.

ظهرت حركة الموحدين بداية القرن 12م على يد محمد بن تومرت من قبيلة هرغة المصمودية الأمازيغية، كان ورعا مولعا منذ صغره بأمور الدين. فارتحل إلى المشرق لطلب العلم ثم عاد يجول في الأسواق يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فاجتمع حوله خلق كثير بالأطلس الصغير بجبل درن، جاء مذهبه مناوئ للمذهب المالكي يدعو للعودة للأصول الأولى للإسلام، كان ميالا للمذهب الشيعي بسبب دراسته بالمشرق، عمل بمبدأ التأويل الذي يبعد الذات الإلهية عن التجسيم ومشابهة الحوادث من خلال تأويل الآيات القرآنية(79)، عرف في صغره باسم أمغار وهناك من المؤرخين من يرد نسبه إلى آل البيت(80)، ربما ليتخذ صفة المهدي، أقام بالأطلس الكبير حيث نظم جيشا ذا مرجعية دينية إسلامية صارمة، وفي سنة 1121م أعلن قيام المهدي المنتظر من طرف الشيعة...

توفي ابن تومرت سنة 522هـ فخلفه عبد المومن بن علي الكومي، لقد أوكله ابن تومرت أمر الموحدين رغم كونه من غير جلدة المصامدة، لماذا؟ ألم يكن في ذلك مغامرة قد تفرق بين شعب المصامدة؟ أليست العصبية أساس لحمة القبيلة خاصة النسب على حد رأي العلامة عبد الرحمن بن خلدون؟ يزعمون أنه تم إخفاء موت ابن تومرت ثلاث سنوات خوفا من أن يشيع خبر موته فتتفرق القبيلة، وقد ظل أتباع عبد المومن على تلك الحال يدبرون أمر الموحدين إلى أن

حان وقت كشف الأمر وحفز الناس على بيعة صاحب المهدي سنة 425هـ(81) فأعلن الجهاد على المرابطين واستولى على المغرب وتلمسان وفاس ثم العاصمة مراكش إلى حين سقوط الدولة المرابطية عام 1147م.

بعد هذا أضحى عبد المومن بن علي الكومي (1130- 1163م) على رأس مملكة تضم شمال أفريقيا إلى طرابلس إلى الأندلس، ثم خلفه ابنه أبو يوسف يعقوب (1163 – 1184م) الذي أتم فتح الأندلس، لكن بعد معركة العقاب سنة 609هـ/1212م (وقعت المعركة في واد يسميه الإسبان نافاس قرب بلدة تولوسا وهذا سبب تسميتها بمعركة "لاس نافاس دي تولوسا"، ووقعت كذلك قرب حصن أموي قديم يسمى "العُقاب" لذلك تسمى في التاريخ العربي باسم معركة العقاب أو معركة حصن العقاب)، انهزمت جيوش الموحدين الذين كان يقودهم السلطان محمد الناصر، هذا الأخير فر بعد مقتل ابنه في المعركة فتضاربت أقوال المؤرخين في تقدير عدد القتلى في صفوف الموحدين بين 60 إلى 100 ألف، لقد كانت مجزرة حقيقية ضد المسلمين جعلت النصارى يشعرون بالقوة ويسعون بعدها لإضعاف شوكة المسلمين وطردهم وإجبارهم على الارتداد كما حدث مع الموريسكيين الوافدين على المغرب... فكانت هذه الهزيمة بداية نهاية الحكم الموحدي وبالتالي طرد المسلمين من الأندلس، فظهر المرينيون الذين نزلوا بمراكش سنة 1269م. فاستولوا على باقي تراب المغرب الأقصى.

الحفصيون:

هم قبيلة أمازيغية من هنتاتة المصمودية خرجت من صلب الدولة الموحدية، تزعمها أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص، شيخ قبيلة هنتاتة، كان قد جعله الخليفة الموحدي الناصر خليفة على أفريقية ومد يده هناك، خاصة وأن الدولة الموحدية ظلت تعاني من خطر ابن غانية صاحب مايورقة، فحقق عبد الواحد بن أبي حفص انتصارا ساحقا على يحي بن أبي إسحاق بن غانية المايورقي في إقليم الزاب عام 604هـ/1408م(82)، هذا الانتصار وضع حدا لابن غانية وجعل نجم الحفصيين يتلألأ، وأمام وهن الموحدين وتصدع دولتهم وعجز أمرائهم عن الحفاظ على وحدة الأمبراطورية الإسلامية، ثم ظهور المرينيين بالمغرب الأقصى والزيانيين بالمغرب الأوسط والحفصيين بالمغرب الأدنى، اشتدت المنافسة حول السلط بين هذه الدول بغية التوسع وبسط النفوذ، كل هذه العوامل تظافرت لتضعف شوكة الموحدين فاستفرد الحفصيون بحكم أفريقية في عهد أبي زكرياء الذي أعلن الاستقلال عن الدولة الموحدية عام 627هـ.

المرينيون:

يعود نسب المرينيين لقبيلة زناتة، إحدى القبائل الأمازيغية الكبرى، إلى جانب صنهاجة ومصمودة، ينحدرون من بلاد الزاب الكبير وقد اختلفت آراء المؤرخين في نسبهم فمنهم من يردهم لجدهم مرين، ومنهم من يجعل أصلهم

عربي، من قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان(83)، ينتمون إلى الجيل الثاني من زناتة، كان استقرارهم بالمناطق الشرقية على الحدود مع الصحراء بمنطقة الزاب قبل نزوحهم نحو المغرب الأقصى حوالي سنة 610هـ واستقرارهم في المناطق الشرقية والجنوب شرقية، جاهدوا إلى جانب الموحدين بالأندلس وشهدوا معهم هزيمة موقعة العقاب عام 609هـ/1212م، ويرى صاحب الاستقصا أن الأسباب التي هيأت امتلاك المرينيين للمغرب الأقصى هي هزيمة الموحدين وكذا الوباء الذي حل بدولتهم(84)، فقاموا بضم العديد من المدن إلى حضرتهم خلال عهد الأخوين أبو يحي عبد الحق (تولى أمر بني مرين سنة 642هـ إلى 656هـ) وأبو يوسف (حكم بين 657هـ إلى) منها فاس (646هـ) ومدينة سلا ورباط الفتح (649هـ) ومراكش (668هـ في عهد أبي يوسف).

مع حلول سنة 1269م استمروا في زحفهم على سائر تراب المغرب الأقصى، إلى أن قضوا على الموحدين وتوسعوا نحو المغرب الأوسط، فاستولوا على مدينة وهران. لقد عرفت الدولة المرينية عصرها الذهبي في عهد السلطانين أبي الحسن علي (1331-1351م) وأبي عنان فارس (1351-1358م) حيث ازدهر العمران والفكر وسطع نجم العديد من العلماء نذكر منهم العلامة عبد الرحمن بن خلدون والرحالة الأنثروبولوجي ابن بطوطة... وانتصروا على ملوك بني عبد الواد فسيطروا على عاصمتهم تلمسان فبلغوا المغرب الأدنى...

اتخذ المرينيون مدينة فاس عاصمة سياسية لحكمه وهي الجزء الغربي من فاس وتسمى المدينة البيضاء التي بناها يعقوب بن عبد الحق المريني.

كان تدخل المرينيين ضد الموحدين عسكريا محضا دون سند ديني، فجاء حكم زعمائهم بداية الأمر بصفة "السلطان" وليس "أمير المؤمنين" في حين استأثر بنو عبد الواد بالمغرب الأوسط، أما الأندلس فتهاوت على يد المسيحيين خلال النصف الثاني من القرن 14م ليسقط بعدها آخر معقل إسلامي هو غرناطة سنة 1492م(85).

هذا العز لم يعمر طويلا لأسباب منها الصراعات الداخلية، فكل دولة تحمل بين طياتها أسباب انهيارها، ومعلوم أن العهد المريني اتسم "بالاغتيالات السياسية"، حيث كان الصراع على الحكم عنيفا بين سلاطين الدولة، فمنذ العام 1358م بدأت الدولة المرينية تتقهقر وقد تولى الحكم ملوك دون سن الرشد يعيشون تحت وصاية أبناء عمومتهم من الوطاسيين فثار أهل فاس على المرينيين الشيء الذي فسح المجال أمام ملوك الوطاسيين لتدبير الشأن العام وانتهت دولتهم العام 869هـ . 1465م، ثم هناك عامل آخر يبدو أساسا في اندحار دولة بني مرين هو الدور السلبي لليهود بسبب تواطئهم مع النصارى وهو دور اتسم به اليهود على مدار التاريخ الإسلامي ...

تميز المرينيون عن غيرهم من الدول، خاصة المرابطية والموحدية، كونهم لم يتعصبوا لمذهب معين بل انفتحوا على كل المذاهب وتركوا الحرية لأشياعهم

الشيء الذي شجع العديد من العلماء على الارتحال إلى المغرب هربا من المد النصراني بالأندلس مثل ابن الخطيب (ت 776هـ . 1374م) والعلامة عبد الرحمن بن خلدون (ت 808هـ . 1405م)، وظهر العديد من العلماء مثل ابن عذارى المراكشي (ت 712هـ . 1312م) وابن البناء (ت 721هـ . 1321م) وابن أجروم (ت 723هـ . 1323م) وابن رشيد السبتي (733هـ 1333م) وابن أبي زرع الفاسي (ت741هـ . 1340م) وعبد المهين الحضرمي (ت 749هـ . 1348م) وابن الحاج (مؤلف فيض العباب، ت 774هـ . 1372م) والرحالة ابن بطوطة الذي كتب رحلته بتكليف من السلطان أبي عنان المريني (ت 779هـ . 1377م) ...(86) ناهيك عمن هلك من العلماء كانوا مع السلطان أب الحسن على متن أسطوله في طريق العودة من تونس وقدر صاحب نفح الطيب عدد العلماء والفقهاء الذين هلكوا بأربع مائة، كان ذلك في شتاء سنة 705هـ(87)، هذا التجلي الديني كان ميزة لملوك بني مرين، فقد رعوا العقيدة الإسلامية حق رعايتها، ونضرب مثلا هنا بالسيدة أم اليمن بنت محلى البطوئي أم الأمير يعقوب بن عبد الحق والتي كانت فاضلة صوامة قوامة ذات عقل ودين حجت بيت الله الحرام ثم ما فتئت أن عادت مرة ثانية للحج لكن المنية وافتها بأرض مصر(88).

أما الميزة الثانية، فإن عهد بني مرين كان عهد حرب واقتتال بين بيني مرين أنفسهم وأبنا عمومتهم الزيانيين البنو عبد واديين ملوك تلمسان من الطبقة

الثانية من زناتة، استقروا بمصاب جبل راشد وفجيج وملوية وكانت بينهم وبين بني مرين أبناء عمومتهم فتن، أعلنوا ولاءهم للموحدين عند نزولهم بتلمسان(89)، كانت الاغتيالات من أجل السلطة... إنه عصر الاغتيالات السياسية بامتياز.

الوطاسيون:

يعود أصلهم للمرينيين لكنهم ليسوا من ذوي عبد الحق، استأثروا بمنطقة الريف بشمال المغرب وجعلوا كبير همهم انتزاع الملك من المرينيين إلا أنهم ما فتئوا أن أذعنوا لهم وصاروا في خدمتهم فجعل منهم سلاطين بني مرين وزراء وحجاب وعمال فأحسنوا البلاء وحسن أثرهم في الدولة(90)، ويرى بنو الوزير، رؤساء بني وطاس، أنهم من أعقاب علي بن يوسف بن تاشفين أي أنهم من صنهاجة وإنما طول مقامهم بين بني وطاس جعلهم ينصهرون فيهم ويلبسون ثقافتهم(91).

حكم الوطاسيون المغرب ما بين سنوات (1358- 1375م) ثم (1393. 1458م)، اتخذوا من مدينة فاس مستقرا لهم، أصولهم أمازيغية، وقد كان ظهورهم مع أقربائهم المرينيين فسيطروا على منطقة الريف في بداية الأمر ثم توسعوا ليطيحوا نهائيا بالمرينيين، جاؤوا هم أيضا من منطقة الزاب فعمدوا منذ البداية إلى مزاحمة المرينيين في ملك المغرب واكتفوا بدور الحجابة لكن المرينيين أقاموا لهم مذبحة سنة 1458م لم ينج منها إلا القليل منهم محمد الشيخ المهدي

الذي استقر بمدينة أصيلة شمال المغرب سنة 1465م ومن هناك انطلق ليستولي على فاس سنة 1472م لكن البرتغاليين فاجئوه بالهجوم على أصيلة هكذا وجد الوطاسيون أنفسهم في مواجهة العديد من الإمارات المرينية (إمارة دبدو) من جهة ثم الخطر البرتغالي والإسباني الزاحف على مدن سبة وطنجة والمد السعدي الذي استغل هذا الوضع سعيا لتأسيس كيان سياسي جديد.

إن الحديث عن تاريخ الأمازيغ بالشمال الإفريقي هو حلقة أساس في مسيرة حضارة تم حجب جزء كبير منها لاعتبارات ذاتية لا تتوخى البحث الموضوعي، فكل أمة لا تبحث في تراثها وتاريخها هي أمة آيلة للتخلف والتقهقر لأن أهمية التاريخ لا تتجلى في سرد الوقائع وحسب ولا في ذكر الأعلام والأماكن لكن أيضا في الوقوف عند مكامن القوة والضعف من أجل بلور مفهوم حضاري لكل هذه الوقائع والأحداث التي تمر بأمة واستخلاص العبر منها لاستشراف المستقبل.

خلاصة

لقد عرفت أرض الأمازيغ حضارة كبيرة وحمل شعبها ثقافة تفاعلت مع الثقافات المجاورة لهم منها الثقافة بونية التي هي ثقافة أمازيغية فينيقية ثم إن الملك مسينيسا شجع الفكر اليونان خلال القرن الخامس قبل الميلاد وقد ألف يوبا الثاني كتاب "ليبيكا" يتحدث عن بلاد الأمازيغ(92)، ثم إن أول أديب أمازيغي

الأصل لاتيني اللغة ظهر في النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد أي قبل نزول الرومان في أفريقية ثم تيرينتيوس آفر Terentius Afer(185.159ق م) أي الأفريقي، وقد خلد ست مسرحيات، وأفولاي (170.125م) أحد المفكرين العالميين صاحب كتاب "التقمصات" (Les Métamorphoses) في أحد عشر جزء(93) وصاحب أول عمل روائي هو "الحمار الذهبي" ...، فاحتكاك الأمازيغ بالحضارات الأخرى جاء في إطار المثاقفة L'acculturation.

لقد ظلت منطقة الغرب الإسلامي، أي الشمال الإفريقي والأندلس، تعاني من عدم الاستقرار، رغم ما تكبدته الدول الكبرى، المرابطية والموحدية، من عناء الحروب والمواجهات مع القبائل المناوئة لتوحيد هذه القبائل ومحاربة العدو في الدين، لقد كانت الواجهات متعددة، سواء بالأندلس أو بالمغرب الأدنى والأوسط والأقصى إلا أن المواجهة المذهبية كانت الأعنف فالمذاهب تفشت بين القبائل الأمازيغية خاصة المالكية والخارجية وقد وجدت هذه المذاهب في بلاد الأمازيغ مرتعا لها لتأجيج اختلافاتها، فالمالكية مثلا، تعتبر الخوارج خارجين عن مذهب أهل السنة، وقد ذكر ابن أبي يزيد (فتوى ابن أبي يزيد، المعيار)أن الإمام مالك وأصحابه لا يأخذون بشهادتهم وأن علماء آخرين يقبلون بشهادتهم في الأماكن التي يمثلون فيها الأغلبية وأنه يجوز للمالكية تعليم القرآن عند الاقتضاء

لأبناء الخوارج دون الكتابة ومن الخوارج في جربة، حسب الشريف الإدريسي، من لا يماسح الثياب أو يأكل مع من هم على غير مذهبهم(94) من هنا يبدو أن السند الديني كان حاضرا عند تأسيس كل دولة فهو الذي يضفي الشرعية على السلطة وبالتالي دار الملك، باستثناء مملكة نكور وفيما بعد الدولة المرينية التي اعتمدت قوتها العسكرية في البداية لتبحث بعد ذلك عن الشرعية الدينية، فالمرينيون لم يكونوا بالقوة التي تمكنها من بسط نفوذها على سائر بلاد الغرب الإسلامي حيث تم تقاسم الشمال الإفريقي بين بني عبد الواد الزيانيين بالمغرب الأوسط والحفصيين بالمغرب الأدنى والمرينيين بالأقصى، أما الأندلس فلم يستطع المرينيون الحفاظ على وحدته رغم كل محاولات كما فشلوا في استعادة وحدة الشمال الأفريقي كما كنا في عهد الموحدين خاصة تلك الجهود التي بذلها السلطان أبو عنان بن أبي الحسن والتي باءت بالفشل.

لقد اهتمت الدول الأمازيغية بالمجالين الديني والروحي بشكل كبير لم يسبقهم إليه غيرهم سواء بالمغرب أو بالأندلس، لهذا نجد بعض المدن حظيت بالقسط الوافر من العمارة الإسلامية مثل مدينة فاس التي شهدت عصرها الذهبي في العهدين المرابطي والموحدي لاسيما في عصر الخليفة يعقوب بن يوسف بن عبد المومن بن علي الكومي ثالث الخلفاء الموحدين (580-590هـ) وولده محمد (590-610هـ)، حيث بلغ عدد المساجد بفاس 785 مسجدا(95)، هكذا

برز عدد من الفقهاء والخطباء اعتلوا منابر المساجد، نذكر منهم أواخر العهد الموحدي والعصر المريني، الخطيب المبارك الصالح المهدي بن عيسى ثم الفقيه الصالح بن عطية والفقيه يسكر بن موسى الجورائي وغيرهم كثر(96).

مهما يكن من قول فإن تشبث الأمازيغ/الأمازيغ، بالدين الجديد لم يضاهيه سوى تمسكهم بأرضهم واستماتتهم في الدفاع عنها وقد كان لهم الدور الكبير في نشر الإسلام والتشبع بتعاليمه، فاللبس التاريخي القائم حسب اعتقادي هو بين نشر العقيدة الإسلامية والغزو العربي المتلخص في سلوك الولاة العرب ودار الخلافة بالمشرق ثم من بعدهم بنو هلال وما ألحقوه من ضرر ببلاد الأمازيغ حيث كانوا مثل الجراد المنتشر أتوا على الأخضر واليابس واستباحوا الأرض والعرض ووضعوا سيوفهم في قبضة كل جموح للسلطة والملك، على حد تعبير صاعب العبر.

الهوامش

1) بوزياني الدراجي، القبائل الأمازيغية، أدوارها، ومواطنها، وأعيانها، ج1، الطبعة 4، 2010، ص. 14إلى16

2) Mercier, Ernest (1840-1907). Histoire de l'Afrique septentrionale, Berbérie, depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête

française. 1888. Tome 1. Imp Durand. Paris. P9

3) عبد اللطيف محمود البرغوثي، التاريخ الليبي القديم، ج1، منشورات تامنغاست

4) عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج3، ص.116

5) نفسه. ص116

6) القلقشندي، قلائد الجمان، نفس القول عن الأصول العربية للبربر نجده عند ابن أبي زرع، صاحب الأنيس المطرب والذخيرة السنية وغيرهم من النسابة، وهو الأمر الذي يدحضه عبد الرحمن بن خلدون

7) عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر ...، م. س، ص.126

8) مدينة أثرية تبعد 3 كلم عن مدينة العرائش و22 كلم عن موقع زليل القريب من جماعة "إثنين سيدي اليماني" بإقليم طنجة، بنيت زليل القريبة من جماعة "إثنين سيدي اليماني" بإقليم طنجة. بنيت على الضفة اليمنى لوادي اللكوس من المدخل الشمالي للعرائش فوق هضبة تسمى "التشوميس" مطلة على الساحل الأطلسي على علو 80 مترا، تقدر مساحتها بحوالي 75 هكتار وقد لعب موقع ليكسوس (هو الإسم الأثري لمدينة العرائش التي بناها الفينيقيون

9) الملك ماسينيسان (202 ق.م. – 148 ق.م.) ابن الملك غيان المتوفّي سنة 206 ق.م. ابن زكلسان اشّفط – صاحب السلطة التنفيذية – في دقة وهو "ماسينيسان" والد الملكين: غولوسا وميقيبسا ومن أشهر أحفاده يوغرطة

10) تاريخ إفريقيا العام، المجلد الثاني، حضارات إفريقيا القديمة، المشرف على المجلد: د.جمال مختار، اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ إفريقيا العام،

جونافريك، اليونسكو، الفصل الثامن عشر، بقلم، ب.هـ. وارمنجتون. ص 470

11)نفسه، ص.470، كذلك عند :

Cherbi Moh et Thierry Deslot: Les rois berbères, Paris-Méditerranée. 2010. p.46 .

12)تاريخ إفريقيا العام، م. س، المجلد 2. القسم 2،. بقلم ب.سلامة، ص514/513

13)عبد العزيز الثعالبي، تاريخ شمال إفريقيا من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبية، تحقيق أحمد بن ميلاد، ومحمد إدريس. مطبعة دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 2، 1990، ص 29

14)أحمد بن خالد الناصري السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج.1، الطبعة الأولى، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1955، ص.35

15)نفسه، ج.1، ص. 36

16)نفسه، ص. 37

17)عبد العزيز الثعالبي، تاريخ شمال إفريقيا ...، م.س، ص. 66

18)نفسه، ص 87

19)نفسه، ص 95

20)الناصري، الاستقصا ...، م. س، ج.1، ص33و34

21)نفسه، ص.35

22)نفسه، ص.36

23)نفسه، ص.37

24)نفسه، ص.38

25)نفسه، ص.42

26)نفسه، ص.43

27)نفسه، ص.46

28)نفسه، ص.47

29)الناصري، الاستقصا ...، م. س، ج.1، ص.48

30)محمود إسماعيل عبد الرزاق، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية 1985، ص.6160، نقلا عن القيرواني الرقيق، وعبد الرحمن بن خلدون، وابن عذارى

31)نفسه، ص.49

32)نفسه، ص.51

33)حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي، العصر العباسي الثاني، ج.3، الطبعة الرابعة عشرة، مطبعة دار الجيل بيروت ومكتبة النهضة المصرية، 1996، ص.215و216

34)محمود إسماعيل عبد الرزاق، الخوارج ...، م. س، ص.5

35)الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، ج.2، ترجمة، حمادي الساحلي. ج.2، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992، ص.8و9

36)بوزياني الدراجي، القبائل الأمازيغية ...، م. س، ج2، زناتة، ص.205

37)مجهول، مفاخر البربر، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 2005، ص.138. وفي نسخة أخرى حققها عبد القادر بوباية، (أبو علي صالح بن عبد الحليم الإيلاني، مفاخر البربر، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الثانية)

38)محمد عيسى الحريري، الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي، حضارتها وعلاقتها الخارجية بالمغرب والأندلس (160هـ . 296هـ)، الطبعة الثالثة، دار القلم للنشر والتوزيع الكويت، 1987، ص.57

39)محمود إسماعيل عبد الرزاق، الخوارج ...، م. س، ص.62

40)نفسه، ص. 63

41)عبد الرحمن ابن خلدون، كتاب العبر...، م.س، ج.6، ص.283

42)الناصري، الاستقصا...، م.س، ج.1. ص. 48

43)رجب محمد عبد الحليم، دولة بني صالح في تامسنا بالمغرب الأقصى (125هـ. 455هـ)، دار الثقافة للنشر والتوزيع، المقدمة، (الطبعة لا تحتوي معلومات أخرى. المؤلف أستاذ مادة التاريخ الإسلامي بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية. جامعة القاهرة)

44)سميت باسم النهر الذي يخترقها، نهر نكور، غزاها المجوس سنة 224هـ، ثم عاد سعيد بن إدريس ليحكم قومه مدة 37سنة. كانت بها أبواب عدة وحمامات (ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج.س. كولان وإ. ليفي بوفانسال، ج.1، ط.3، دار الثقافة، بيروت، 1983، ص.176)، تقع بين نهرين، نكور وغيس كما ورد عند البكري)

45)نفسه، ص. 178

46)عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر ...، م. س، ج6، ص.283

47)ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب ...، م.س، ج.1، ص.183

48)نفسه، ص. 194

49)نفسه، ص. 247

50)الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات المعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، 1983، ج.1، ص. 192، الخريطة

51)نفسه، ص.98و99

52)عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر ...، م. س، ص. 276و277

53)نفسه، ص14و15

54)عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة

55)رجب محمد عبد الحليم، دولة بني صالح ...، م. س.

56)أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم التميمي (ت 333هـ)، كتاب المحن، دار الغرب الإسلامي، ط3، بيروت، 2006، ص. 230

57)نفسه، ص16و17

58)الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف أفريقيا، م. س، ص.195و196

59)عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر ...، م.س، ج6، ص. 286

60)أحمد بن خالد الناصري السلاوي، م.س، ج. 2، ص.3

61)نفسه، يمكن في هذا الصدد الرجوع إلى ما جاء في الصفحات من 202 إلى 214. (عبد الرحمن بن خلدون في العبر. ج6). كما يمكن الوقوف عند ما ورد في كتاب "الدولة الصنهاجية، تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من ق10إلى ق12م"، وهو كتاب نقله إلى العربية حمادي الساحلي، عن النص الفرنسي للمؤلف هادي روجي إدريس، 1962، ج1، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، 1992، بيروت.

62)نفسه، ص.5

63)أورد ابن خلدون في كتاب العبر، ج6، ص.243، أن الفقيه أبو عمران كتب إلى الفقيه محمد وكاك بن زلوا اللمطي بسجلماسة وهو من الآخذين عنه. فطلب منه ان يوكل لهم من يأخذ بيدهم في أمور دينهم. فاختار لهم عبد الله بن ياسين بن مكو الجزولي. وهو الأمر الذي يناقض ما ورد عند صاحب الاستقصا.

64)Ismaël Hamet,... Histoire du Maghreb. Cours professé à l'Institut des hautes études marocaines. 1923. P79

65)Ibd. P. 80

66)أحمد بن خالد الناصري السلاوي، الاستقصا ...، م.س، ج. 2، ص.9

67)نفسه، ص.10

68)أحمد بن خالد الناصري السلاوي، الاستقصا ...، م.س، ج.2، ص.12(تجدر الإشارة أن الناصري أخذ عن بن خلدون في هذا الصدد وهو يعلن عن ذلك في أكثر من مقال)

69)نفسه. ص13

70)أحمد بن خالد الناصري السلاوي، الاستقصا ...، م.س، ج.2، ص.14

71)عبد الرحمن بن خلدون، العبر...، م.س، ص. 249و250.

72)الناصري، الاستقصا ...، م.س، ج.2، ص.53

73)الناصري، الاستقصا ...، م.س، ج.2، ص.251

74)عبد الرحمن ابن خلدون، كتاب العبر...، م.س، ج.6، ص. 299

75)حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي، العصر العباسي الثاني، ج.3، مطبعة دار الجيل بيروت ومكتبة النهضة المصرية، الطبعة الرابعة عشرة، 1996، ص.270، ثم ابن خلدون في كتاب العبر...، م.س، ج.6، ص.302

76)عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر...، م.س، ج.6، ص.301

77)نفسه، ص. 306،(ذكره أيضا الناصري، الاستقصا ...، م.س، ج.2، ص.91)

78)عبد الفتاح مقلد الغنيمي، موسوعة تاريخ المغرب العربي، المجلد3، ج.5، مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى، 1994، القاهرة، ص. 19

79)علي بن ابن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط. 1972، لا يوجد رقم الطبعة، لكن نرجح أنها الأولى من كلام المقدمة، ص.14

80)الناصري، الاستقصا ...، م.س، ج.3، ص.4

81) Ismaël Hamet,... Histoire du Maghreb. Cours professé à l'Institut des hautes études marocaines. 1923. P155

82) عامر بن عبد الله حسن، دولة بني مرين، تاريخها وسياستها تجاه مملكة غرناطة الأندلسية والممالك النصراني في إسبانيا (688هـ . 869هـ)، رسالة ماجستر، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطسن، 2003، ص. 212و213

83) الناصري، الاستقصا ...، م.س، ج.3، ص. 171

84) علي بن ابن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنية ...، م.س، ص. 23

85) عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر...، ج.7، ص.97

86) نفسه، ج.4، ص. 118

87) عبد الرحمن ابن خلدون، كتاب العبر...، ج.7، ص.287

88) الثقافة الأمازيغية وثقافة الأمازيغيين. www.tawalt.com/wp.../books/33 ص79

89) نفسه، ص. 82و83

90) الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، ج.2، الطبعة الأولى، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992، ص.359

91) علي الجزنائي، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، الطبعة2، المطبعة الملكية الرباط، 1991، ص.44

92) نفسه، ص.56